"لقاء الرواية في مصر

انطلقت أشغال «لقاء الرواية في مصر والمغرب – أسئلة وقراءات» لالتقاط الأسئلة التي تشغل الروائيين في كلّ من مصر والمغرب، من خلالهم وتشغلُ من خلالهم كلّ الروائيين والنقّاد العرب. ذلك أنّ الأسئلة والقضايا والهواجس التي طرحت هي عينها تلك التي تهم الرواية العربية ونقدها عموماً. وهكذا فإنّ هذا اللقاء هو بمثابة «قمّة» روائية عربية صغرى تمهّد الطريق، بدون شك، لـ«قمّة» روائية عربية شاملة تُدرس فيها قضايا الرواية العربية وإشكالاتها في ضوء التبدّلات التي تراهن عليها. وقد حضر هذه القمّة الروائية الثنائية مجموعة من الروائيين والنقّاد المغاربة والمصريين نذكر منهم الروائيين المصريين: ادوار الخرّاط، وفتحي غانم، وبهاء طاهر، وإبراهيم أصلان، ومحمد البساطي، وخيري شلبي، وهالة بدري، ومنتصر القفاش... والنقاد المصريين: جابر عصفور، وحسين حمودة، وصلاح فضل... وأمّا الجانب المغربي فقد كان ممثلاً بنقاد من بأجيال مختلفة من الكتاب، منهم: محمد برّادة، ونجيب العوفي، ومحمد عز الدين التازي، وسعيد يقطين، وشعيب حليفي، وعبد الفتاح الحجمري.

وتكمن أهمية هذا اللقاء في محاولته تكسير حاجز الصمت الذي يطول العديد من القضايا التي تمسّ جوهر الإبداع والإنسان العربيين، كقضايا: الحرية والديمقراطية وحق الاختلاف واحترام الآخر... وهو ما ألمع إليه الدكتور جابر عصفور في كلمته في الجلسة الافتتاحية للّقاء، حينما أكّد على أنّ: «اللقاء هو لقاء للحوار. لم نأت لنتحدّث عن تاريخ الرواية المصرية. وإنّما جئنا لنمارس مع إخوة لنا وأقارب حوار الاقران والاكفاء. واللّقاء لا يعني أنّ واحداً منّا يمتلك الحقيقة والتجربة المكتملة، وأنّ الآخر ليس إلاّ تابعاً، بل جئنا ليستفيد كلّ طرف من الآخر».

إنّه تكسير لأسطورة المركز والمحيط التي فوّتتْ على ثقافتنا العربية الكثيرَ من فرص التطوّر والاغتناء. ولكنْ لا يجب أن يفهم من كلامنا أنّنا نتنكّر للخصوصيات التاريخية للرواية المصرية، والتي بوأتها مكانة ريادية في مرحلة من مراحل تكوّن النّص الروائي العربي، في مقابل حداثة النّص الروائي المغربي. فعلى امتداد قرن من الزمن استطاعت الرواية المصرية أن تبلور أسئلتها وقيمها الجمالية ضمن محيط ثقافي وسياسي ملتهب وخصيب وأكثر جدالاً من المحيط الإبداعي والثقافي والسياسي الذي تبلورت فيه قيمُ الرواية المغربية وجمالياتها. غير أنّ هذا التمييز التاريخي بين اللحظتين الإبداعيتين في كلّ من مصر والمغرب لا يُخْضع الكتابةَ كما عبّر عن ذلك محمد برّادة: «لمنطقِ التطوّر المطّرد نحو الأفضل ولا لمنطق محاكاة اللاّحق للسابق. إنّه مجال مفتوح على كلّ الاحتمالات، يعلو وينخفض، ومكاسبُهُ لا تأتي نتيجة تخطيط بقدر ما تتولّد عن عناد المبدعين ومقاومتهم للواقع القائم ولتبريراته الجوفاء. من هذه الزاوية، فإنّ الأهمّ والأعمق عند الكاتب العربي، سواء اعتبر من المركز أو المحيط، هو مواجهة الأسئلة المشتركة المطروحة على المجتمعات العربية وعلى كتّابها».

لقد كنّا في المغرب في أمسّ الحاجة إلى التعرّف على التجارب الروائية الجديدة في مصر، بعد أن مللنا من اجترار أسماء بعينها، وكأن النّيل المعطاء لم ينجبْ سواها. كما كنّا نوّاقين إلى التفاعل والتخاطب مع اللحظات الإبداعية المنفلتة من جوقة الصخب الإعلامي، عنيت: تلك اللحظات التي تؤسّس لذاتها صوتاً متميّزاً ونبرة مسكونة بالتغيير. وهذا، في رأينا، ما أسّس له اللّقاء ونجح في تحقيقه.

كما كان المصريون في حاجة، هم كذلك، إلى التعرّف على حصيلة الإبداع الروائي المغربي وخصوصياته والوقوف عند أهمّ قضاياه المتميّزة، ولاسيّما أنّ مساراً روائياً مغربياً جديداً بدأ في قيد التشكل وشرع في فرض ذاته ورسم ملامح جديدة في الكتابة الروائية لا شكّ في ثراها وغناها، عبر استغلالها الواعي لمناطق بكر في متخيّل الثقافة الشعبية المغربية والتاريخ والذاكرة والأسطورة والحلم والاستيهام...

ولفهم ملابسات هذا اللّقاء المغربي المصري حول الرواية في البلدين، يجدر بنا أن نقف عند ورقة محمّد برّادة.

أهم الأسئلة التي تواجه المجتمعات العربية وكتابها في المرحلة الراهنة يجملها برّادة في استفساراته التالية: «ما الذي يستطيعه الأدب في مواجهة ثقافة الاستهلاك ووسائطها المغرية بالسهولة والسلبية؟ كيف نقيم علائق جديّة ومباشرة بالقارئ؟ لمَ الأدب؟ وما وظيفته في السياق الراهن المطبوع بسيادة الخطابات اللفظوية وتفاقم الشعور بالعجز المطلق؟».

ولم تكن فعاليات اللّقاء المغربي المصري تحتضن هذه الأسئلة للإجابة الحاسمة عنها، بقدر ما كانت تستفز السؤال في حدّ ذاته قصد توليد أسئلة فرعية أخرى. ومن خلال تتبّعنا لأشغال هذا اللّقاء، تبيّن لنا أن هناك أسئلة جديدة بدأت في اختراق حقل التداول الثقافي العام وحقل الإبداع الأدبي خاصّة وتتمثّل في أسئلة من نوع: ما وظيفة الأدب الجديدة؟ أيّة علاقة للأدب بالمتخيّل السياسي؟ فيما يفكّر الأدب؟. كما طُرحت أسئلة أخرى بدت تقليدية من كثرة تداول النقاش حولها في حقل الممارسة الثقافية العربية، من مثل سؤال الحداثة والواقعية، ومسألة اللّغة التي يُكتب بها النّص الروائي العربي وما تطرحه من إشكالات على مستوى التلقي خصوصاً إذا كانت تتمثل بقوّة الخلفية الثقافية المحلية: الحكايات الشعبية، اللهجة العامية...

خاصية أخرى ميّزت هذا اللقاء وتجلّت في الجمع بين القراءة العلمية التي أنجزها صلاح فضل وحسين حمودة، والقراءة العاشقة للنّص، التي سمّاها محمد برّادة بـ«القراءة المتحيّزة»، وهي التي تنسج، من خلال قراءتها، نصّاً إبداعياً موازياً للنّص الإبداعي المقروء. ويمكن بهذا الصدّد الإشارة إلى القراءة العاشقة والجميلة التي قدّمها الروائي المصري خيري شلبي لرواية الكاتب المغربي محمد عز الدّين التازي: **مغارات**. وتظل القراءتان معاً، في نظر ورقة العمل، «تشتركان في تأويل النّص المنقود، لأنّ التأويل يخرج القراءة من دائرة التلقّي السلبي ويلحقها بمجال التفاعل الإيجابي مع أسئلة الأدب والثقافة في سيرورتها العامّة».

والجمع بين القراءتين أكّد، في رأينا، أنّ مأزق النقد الروائي العربي يكمن في واقع انفصالهما. ذلك أنّ القراءة العاشقة التي تؤسّس قراءتها على التذوّق الفنّي الخالص للنّص، وعلى التجاوب الانفعالي والوجداني مع مسكوناته وتضاريسه، تبقى انطباعية متحرّرة من ضوابط النقد المنهجي، وهو ما يؤثّر على قيمة أحكامها التي تظلّ متسيّبة غير خاضعة لمنطق العلمية والموضوعية... في حين

والمغرب - أسئلة وقراءات»

أنّ القراءة العلمية الموضوعية تظلّ جافّة تفتقد إلى حرارة التذوّق الذكي للنّص والتفاعل المحايث معه بفعل الاستحضار المكثّف لترسانة المفاهيم والمناهج والجدل النظري والدوران في متاهاته والاستشهاد بأعلامه ومدارسه. ويبقى البحث عن إمكانية الجمع بين القراءتين هو السبيل إلى إيجاد مخرج لمأزق النقد الروائي العربي.

انعقد لقاء الرواية في مصر والمغرب في ظلّ شروط جدل مايزال يستحكم في تمفصل الوعي بالشكل الروائي باعتبار نشأته وتكوّنه ومرجعيته التاريخية. ولذلك وجد اللّقاء نفسه مضطراً لمواجهة هذا الطرح النظري الفضفاض، ومحكوماً، بالتالي، باتخاذ موقف حاسم منه. وفي هذا الصدد تؤكّد ورقة العمل على «ضرورة تخطّي الجدال المتّصل باستيراد الشكل الروائي من آداب أخرى. إنّه شكل له جذور وبذور وتحقّقات في كلّ الثقافات؛ ومن خلال رحلته الطويلة عرف تنويعات وتحوّلات بفضل الإبداعات المتباينة؛ ومن ثم لا مجال لأن تتملّك ثقافةٌ ما، وحدها، شكلاً من أشكال التعبير خاصة عندما يتعلّق الأمر بجنس الرواية المفتوح على كلّ الأجناس، المتصّ لكلّ الخطابات. وبترابط مع هذه النقطة، لا داعي للاستمرار في الانشغال بأسئلة مغلوطة عن شروط نظرية عربية للرواية، لأنّ الخصوصية بهذا المعنى ممتنعة، ولأنّ الأهمّ هو ما يودعه المبدعون في رواياتهم من تجارب وفضاءات وشخوص تشيّد متخيّلاً غنيّاً، حيوياً، مستفزّاً لمخيلة القارئ العربي، محرّضاً له على التأمّل والاستكشاف والانتقاد».

أسئلة من وحي اللقاء:

أ - المسألة التي تطرّقتْ إليها ورقةُ العمل التوجيهية للّقاء، والمتمثّلة في تسجيل تجاوز الرواية العربية للقيود المفروضة عليها عبر المتخيّل السياسي، تبلورت بشكل عميق في إطار الجدال الذي اشتدّ بين أنصار الحداثة وأنصار الواقعية.

فقد اعتبر أنصارُ الحداثة، وفي مقدّمتهم إدوار الخرّاط، أنّ الحقائق القديمة لا تخضع لقانون الثبات والسكون. إنّ المتشبّثين بالحقائق القديمة والمستشهدين بثرائها وخصوبتها يتجاهلون بأنّها قد استنفدت كلّ إمكانياتها في الحياة والاستمرار بالهيئة والشكل القديمين. ويقول الخرّاط معقّباً على رأي بهاء طاهر في الواقعية: «لا أتصوّر أنّ هناك إمكانية الآن لبلزاك جديد أو تشيخوف جديد أو حتى بيكاسو جديد. لقد أدّى هؤلاء مهمّتهم واستنفدوا، في تصوري، إمكانياتهم ومواضيعهم الثرّة والخصبة التي سنظلّ نغتني بها». غير أنّ هذا الثراء لا يمكنه، حسب إدوار الخرّاط، أن يوقفنا عَن الفعل ونشدان التغيير والتجدّد.

الحداثة، عند الخرّاط، لا ترتبط بالتاريخ، بل تمتدّ فيه وتتجاوزه. والحداثة لا تضع في حسبانها جمهور القرّاء، بل تتجاوز لحظتها. ولذلك فَقُرّاء الأعمال الحداثية قلّة، ولا يتجاوزون في أحايين عديدة، زملاء هذا الكاتب الحداثي أو ذاك. وأمّا الواقعية فتميل إلى الارتباط المطلق بالقارئ، ولذلك تراها تحقّق أكبر نسبة من المقروئية، لأنّها تقدّم للقارئ واقعه وتحاول أن تفعل فيه من أجل تغييره. ومثل هذه التحديدات للواقعية تثير إدوار الخراط وتدفعه إلى الإعلان عن تصوّره للواقعية والواقع: «أظن أنّ ما دار اليوم من حديث عن الواقعية باعتبارها رصداً للمظاهر الاجتماعية وللسلوك الاجتماعي وللأحداث اليومية والتحليل المعقلن للأمور والأشياء... إنّما هو إسقاطٌ لخصوصية الواقعية». فالواقعية، كما يراها الخرّاط، تعدو أن تكون تسجيلاً للمظاهر الاجتماعية والأحداث اليومية. إنّها ليست كائناً واحداً مادام الواقع يحتوي، في نظر الخرّاط: «على الحلم وعلى محتويات اللاّوعي، كما يتضمّن الفانتازيا والشعر، ويقوم على تكسير التسلسل الزمني الذي نجده في حياتنا الحميمة والعميقة. فليست المحاكاة القصدية هي الواقعية، بل هي موافقة تقليد من التقاليد له مشروعيته وله ضرورته التاريخية وله بقاؤه. لكن ليست هي المعيار النهائي للحكم الأخير على ماهية العمل الفنّي الحق».

لكن هل يكفي أن يظهر التفكّك والتشظّي في جسد النّص لنكون أمام مشروع حداثي؟ ماذا يمكن أن نقول بخصوص روايات عديدة حداثية لا تحقّق التشظّي والتمزّق في جسد نصوصها؟

أسئلة عديدة تواجه الحداثة والواقعيّة معاً. وانطلاقاً من الجدال الدائر بين النزعتين يتطوّر النّص الروائي العربي وينفتح على أسئلة تتجاوز المدرستيْن، نحو امتلاك رؤية متحرّرة لمفهوم الكتابة.

ب - سؤال الخلفية الثقافية [للقارئ]، وأسئلة من نوع: هل من الضروري استحضار القارئ العربي أثناء لحظة الكتابة؟ هل يُضحّي الروائي بجزء من متخيّله الاجتماعي المحلّي ليحقّق نسبة مهمة من المقروئيّة في الوطن العربي؟ أم يلتجئ إلى أساليب توفيقية تحافظ على الخلفية الثقافية المحلية والقارئ العربي في الآن ذاته؟ هل نحتاج إلى قواميس عربية تضبط دلالات بعض التوظيفات اللّغوية ذات المحتويات الثقافية المحلية؟

أعتقد أنّ مسألة تلقّي النّص الروائي العربي لا تنحصر في علاقة الكاتب والقارئ المنتمين لمنطقتين عربيتين مختلفتين من حيث العادات والثقافات واللهجات، بل إن الإشكال يظلّ قائماً حتى داخل البلد الواحد الذي تتعدّد فيه الثقافات واللهجات. فما يكتبه، مثلاً، روائيّ من جنوب المغرب يصعب في البداية تملّك علاماته وفكّ رموزه من طرف قارئ من شمال المغرب. وتظلّ، في نظري، القراءة المتكرّرة والمتأنيّة والصابرة هي السبيل الأوحد إلى استيعاب النّص وفهم سياقاته الملتوية.

ج - تتميّز الرواية المصرية عن الرواية المغربية باستحضارها لما سمّاه جابر عصفور بـ«الارتحال إلى النقيض/ الشبيه في منطقة النفط». فقد احتفت العديد من الروايات المصرية بهذه الثيمة؛ ويمكن أن نذكر رواية إبراهيم عبد المجيد **البلدة الأخرى** مثالاً على ذلك. غير أنّ السؤال هو: هل تُستَغَلُّ هذه الثّيمة في كلّ الروايات العربية؟ وما هي إمكانية إغنائها لمضامين النّص الروائي؟ وإذا كانت لا تحضر، مثلاً، في النّص الروائي المغربي، فهل يعني ذلك أنّ هناك دلالة وراء هذه الغياب؟ أم أنّ أمر الرحلة إلى الآخر النقيض/ الشبيه في منطقة الخليج لم يحققه الكاتب العربي بعدُ على مستوى الواقع الحياتي؟

من مراسل مجلة الآداب:
عبد الحق لبيض